شعر الطبيعة في الأدب العربي

[كتاب للدكتور سيد نوفل]

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

أظهرت مكتبة الخانجي بمصر كتاب شعر الطبيعة في الأدب العربي للدكتور الفاضل والعالم الأديب سيد نوفل ، وهو الرسالة التي نال بها درجة الدكتوراه برتبة جيد جداً من جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٤٤م .

وقد كان الأدب العربي في حاجة إلى هذا الكتاب الذي عني بتاريخ شعر الطبيعة منذ ظهوره في شعر امرئ القيس كفن قائم بذاته من فنون الشعر ، متأثراً بالبيئة التي ظهر فيها امرؤ القيس ، معبراً في وصفه لها عن شعور صادق يأثرها في نفس الشاعر ، وحب لها يصل إلى درجة التدله والفناء فيها ، ويجعل ذلك النوع من الشعر هو الغرض الأهم من القصيد ، وما عداه من الأغراض كالنسيب يؤخذ على أنه وسيلة له ، وكان مظهره في الوقوف على الأطلال ووصفها والبكاء عليها ، ووصف مشاهد الصحراء العربية من نوق وأفراس وجبال ورياح وسحب ورعود وبروق وما إلى ذلك من مشاهدها ، وهذا هو الدور الأول لشعر الطبيعة في الأدب العربي .

ويأتي بعده الدور الثاني ، وهو دور التقليد في شعر الرقش ومن سلك طريقته ، وفي شعر أوس بن حجر ومن سلك طريقته ، وفي شعر طرفة ومن إليه من بعض الشعراء الذين تحرروا من قيود التقليد بعض التحرر ، وفي هذا الدور حذا أولئك الشعراء في وصف الطبيعة في شعرهم حذو امرئ القيس ، ولكنهم جعلوه وسيلة لغيره من الأغراض ، لأن وصف الطبيعة لم يكن يعنيهم في الشعر كامرئ القيس ، وإنما كان يعنيهم غرض المدح وما إليه من الأغراض التي دعاهم إليها التكسب بالشعر .

ثم يأتي بعد ذلك الدور الثالث ، وهو دور الجمود في صدر الإسلام ، وعهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بني أمية ، لأن شعراء هذه العهود جمدوا فيها على التراث الجاهلي في وصف الأطلال وما إليها من المشاهد البدوية ، ولم يؤثر فيهم ذلك الانقلاب العظيم الذي أحدثه الإسلام في تاريخهم ، ونقلوا به من أمة بدوية إلى أمة حضرية ، وشاهدوا فيه من آثار الممالك المفتوحة ما لم يشاهدوه في باديتهم ، وقد وجههم الإسلام إلى النظر في الطبيعة فلم يتوجهوا ، ولم يجددوا في الشعر ما يلائم ذلك التجديد الديني ، وقد قامت في ذلك الدور حركة للاحياء في رجز العجاج وغيره من الرجاز ، وفي قصيد الراعي وتلميذه ذي الرمة

ممثلا بالإصغاء إليه ، صرت ممثلا بالنظر إليه . لقد أغواني بفنه وأغراني بكبريائه فزين لي أن أهجر الأهل . لقد وعدني بكل شيء ولكنه لم يهبني غير الدموع والأشجان ، غير مصير المثل ونهايته ! لقد خسرت كل شيء ... الشباب ... الوقار ... محبة الله ... ولم أعد أملك فلساً واحداً أعزي النفس به . لقد رث حذائي وبلي ، وتهرأت ثيابي وانتشرت عليها الرقع ، وبدا وجهي كما لو أن كلاباً قد توثبته نهشاً وتمزيقاً ، وامتلأ رأسي بالبالي الرخيص من الفكر ... لقد سلبني إياني ذلك السارق ! على أن ذلك كله ما كان ليبلغ مني مبلغه هذا لو كان لدي شبه ذكاء أتعزى به ، ولكنني قد خسرت كل شيء ، كل شيء للاشيء . إن المجد لقارس أيها السادة ، أفتأذنون بقطرة فإن لدي ما يكفينا ، فلنشرب ، ولنهدأ روحه ، إنني لا أحبه ، إنه الآن ميت ، ولكنه برغم ذلك كان الوحيد الذي كان لي على وجه الأرض ، لقد كان لي كأصابع اليد ، وهذه آخر مرة أراه فيها ، فلقد أخبرني الأطباء بأنني سأموت قريباً لإدماني الخمر ، ولذلك جئته اليوم لأودعه ، فإن علينا أن نصفح عن أعدائنا !

ولقد تركناه يناجي موشكين ، وسرنا خارجين من المقبرة ، ثم انهال علينا رذاذ بارد ناعم من السماء ، وعلى منحنى الطريق الرئيسي لقينا جنازة يحملها أربعة رجال عليهم أنطقة بيض من القطن ، وقد اتسخت نعالهم وناءت بحمل من ورق الشجر علق بها ، كانوا يحملون كفناً رمادياً ، وكان الظلام قد هم بالكون يغشيه بسدول منه سوداء رهيبة ، فكانوا يسرعون بعبئهم يتعثرون ويتأرجحون ... لم تمض علينا غير ساعتين مذ شرعنا نجول هنا وهذه ثالث جنازة يأتون بها ، ألا فلنعد إلى بيوتنا ...

القدس

فيصل عبد الله